الانقلابات السياسية المعاصرة

وأثرها فى تطور التفكير والآداب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من المبادئ الخالدة أن الفكر تراث الانسانيـة ، وأن ثمار التفكير البشرى ملك حق لجميع الأمم والناس ، وأن العلوم والآداب والفنون لا وطن لها ولا تعرف فوارق الجنس والقومية . وقد كانت هذه المبادئ وما زالت هى الغالبة فى توجيه الفكر الانسانى ؛ واذا كان التفكير يتأثر فى أحيان كثيرة بالعوامل والاعتبارات القومية فالفروض دائماً أن هذه المؤثرات لا تجنى على المبادئ والحقائق الخالدة . فقد مجـــدت الحرية مثلا فى كل العصور ، واعتبرت أعز أمنية للشعوب والأفراد وأجدرها بالتضحية ، وقدست حرية الفكر واعتبرت دائماً عنوان الكرامة البشرية ؛ واعتبر الأخاء والمساواة منذ الثورة الفرنسية من أقدس المثل الانسانية . ولكنا نرى اليوم هذه الحقائق تهدر فى أمم عظيمة ، فالحريات بأنواعها تسحق وتذم ، وتعتبر العبودية نظاما ، والخضوع الأعمى وطنية ، والقوميـة المتعصبة تطغى على كل المبادئ والمثل الانسانية ؛ ونرى التفكير والآداب فى هذه الأمم تنزل على وحى السياسة وإرادتها ، وتغدو ألسنة مصفدة لتأييـــد المبادئ والدعوات الجديدة .

وهذه ظاهرة خطيرة فى عصرنا تستحق الدرس العميق . فمنذ الثورة الفرنسية لم يشهد العالم للتمدن انقلاباً فى النظم الاجتماعية والفكرية كالتى نشهده اليوم كأثر للانقلابات السياسيـة التى وقعت منذ نهاية الحرب فى كثير من الأمم الأوربية . وقد كانت الحرب الكبرى ذاتها وما ترتب عليها من النتائج السياسية والعسكرية أكبر عامل فى التمهيد لهذه الانقلابات ، فقد هزت الحرب دعائم المجتمع كله ، وقوضت كثـــيراً من نظمه وآرائه ومعتقداته القديمة ، وعصفت ويلاتها وأزماتها المتوالية بالنفوس والعزائم ، وبثت اليأس والاستكانة الى كثير من المجتمعات ، وظهر أثر ذلك كله واضحاً فى آداب ما بعد الحرب . ونلاحظ فى هذه الفترة أن النزعات الحرة والثورية تغلب على معظم ألوان التفكير والأدب ، وانها تتجه غالباً الى الثورة على المبادئ والآراء القديمة ، سواء فى فهم النظم السياسية أو الاجتماعية ، أو تقدير الفضائل والأخلاق . على أن هـذه الآثار العامة ليست كل شىء فى هذا الانقلاب الفكرى العميق الذى نريد أن نتحدث عنه . وانما يمتاز الانقلاب بآثاره المحلية والخاصة ، فهذه الآثار تذهب اليوم فى بعض الأمم الى إنكار الماضى كله والمثل الفكرية والأدبية والانسانية كلها .

وهذه الثورات الفكرية والاجتماعية العميقة ترجع كما قدمنا الى الحركات السياسية والقومية العنيفة التى جاش بها كثير من الأمم عقب الحرب ، فقد كان لهذه الحركات أكبر أثر فى توجيه التفكير والآداب والثقافة . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نلاحظ مثل هذا الانقلاب العميق فى مناحى التفكير والآداب إلا حيثما وقع انقلاب سياسى عميق يقوم على إنكار الماضى ومبادئه وآرائه القديمة . ففى روسيا السوفيتية حيث سحقت الثورة دولة القياصرة والمجتمع الروسى القديم بكل ما فيه من نظم ومبادئ وتقاليـــد ، وقامت نظم سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة هى البلشفية ، نرى التفكير الروسى يتميز بلون ثورى عميق ، ونرى نظريات الثورة العالمية ، وسيادة الطبقات العاملة ، والأخاء الدولى ، ونضال الطوائف ، وسحق الرأسمالية وغيرها تغمر الأدب الروسى المعاصر ، ونرى الثقافة الروسية كلها تتجه الى غرس هذه النظريات واعتبارها قوام الحياة الروسية العامة ، وغذاء التفكير والآداب والفنون . ولم يبق من الأدب الروسى القديم مايستحق التقدير فى نظر روسيا البلشفية سوى آثار المفكرين والكتاب الأحرار والثوريين ، مثل ترجنيف ودوستويفسكى وتولستوى والبرنس كروباتكن ، تلك الآثار التى تصف شقاء المجتمع الروسى فى عصر القياصرة ، والتى كانت غذاء للحركة الثورية . وفى تركيا الكمالية نرى نواحى التفكير والثقافة تصطبغ بصبغة غربيـة جديدة هى أثر مباشر لاتجاه ثورة التجديد التركى ودفعها لتركيا نحو الغرب ، بعد أن لبثت قروناً شرقية آسيوية ، ونرى زعماء تركيا الجديدة يحاولون أن يخلقوا للشعب التركى عقليـة جديدة تقوم على نسيان الماضى وبغض دول السلاطين ، وتحقير العصبية الشرقية أو الاسلامية ، وتمجيد الاصلاحات الجديدة ، والاندفاع وراء التيار الغربى . ويذهب زعماء تركيا الجديدة فى غرس النزعة القومية فى التفكير والآداب

الى حدود الاغراق ، فتراهم يغيرون قواعد اللغة التركية وألفاظها ويستبعدون منها الألفاظ المشتقة من لغة أخرى ، ويضعون لتركيا تاريخاً جديداً تغفل فيه الحقائق العلمية والتاريخية الراسخة ، ويقال لنا فيه إن الحضارة التركية هي أساس الحضارة البشرية ، وأن اللغة التركية القديمة هي مصدر اللغات البشرية ، وغير ذلك من المزاعم المفرقة التي تنقضها أبسط الحقائق التاريخيـــة ؛ وهذه المزاعم والنزعات كلها تمثل اليوم بقوة في الأدب التركي الجديد ، ولا يسمح للمفكرين والكتاب الترك أن يعالجوا غيرها أو أن يعالجوها بما يخالف النظريات الرسمية ؛ فالأدب التركي اليوم كالأدب الروسي ، أدب حكومي تشرف عليه الحكومة وتوجهه الى ما ترى فيه تحقيق برنامجها السياسي والاجتماعي .

وقد كانت الفاشستية بلا ريب أعظم حركة سياسية اجتماعية حدثت بعد الحرب ؛ وكان لها في توجيه التفكير والآداب أعظم أثر . ونلاحظ أولاً أن أثر الانقلاب الروسي في هذا التوجيه أبعد مدى من حيث كونه ينكر أسس المجتمع القديم كلها ، سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية ، ولـكن الفاشستية لا تذهب في الهدم الى هذا الحد ؛ وبينما تذهب البلشفية الى تقوية النزعات الثورية والحرة في حدود الطغيان البلشفي ، إذا بالفاشستية تقمع كل نزعة ثورية أو حرة تتجه الى محاسبتها . وقد كانت الفاشستية الى ما قبل عامين حركة محلية ايطالية ، ولـكنها تغدو اليوم حركة أوربية عامة تحدث آثارها السياسية والاجتماعية والفكرية في ألمانيا وبولونيا والنمسا وغيرها . ولما كانت الفاشستية حركة طغيان شامل ، فانها تبسط سلطانها على الحركة الفكرية كما تبسطه على كل قوة بشرية أخرى ، وتحاول أن تصفدها في حدود برنامجها ، وأن تسيرها طبقاً لوحيها وارشادها . وهنا فرق جوهري بين موقف الديموقراطية وموقف الفاشستية من الحركة الفكرية ؛ ذلك ان الثورة الديموقراطية تقع دائماً في المحيط العقلي ، ثم تحدث آثارها المادية بعد ذلك في الأنظمة السياسيـــة والاجتماعية ؛ ولـكن الفاشستية تقوم بالعكس في المحيط المادي وبوسائل العنف المادية ، ثم تحاول بعـد ذلك أن تغزو الميدان العقلي وأن تجعل من الحركة الفكرية أداة لتوطيد سلطانها كما تجعل من الجيش والأسطول ؛ ومن أهم ظواهر الفاشستية انها تعمل على مطاردة القوى العقلية الممتازة التي لا تخضع لوحيها ، ولا ترعى سوى الأذهان الضئيلة المتواضعة التي تهرع لخدمة كل سلطة جديدة وكل نظام جديد

ويبدو أثر الثورة الفاشستية في الحركة الفكرية الايطالية وفي الحركة الفكرية الألمانية بشكل قوي واضح . ففي ايطاليا تسود المبادئ الفاشستية الرجعية في توجيه التفكير والآداب والفنون والحياة العقلية كلها كما تسود الحياة السياسية والاجتماعية ، وتقمر الثقافة الايطالية في جميع نواحيها ، وتحاول أن تحدث أثرها في توجيه الثقافة العالمية . ولما كانت الفاشستية تنكر الحريات العامة ، فهي لا تعترف بحرية الفكر بل تبغضها وتسحقها بكل قواها ، لأنها ترى في وجودها خطراً على كيانها ؛ وحرية الفكر أسمى مزايا الانتاج العقلي والفني ، واذاً ففي ظل هذا الطغيان الذي يسلب الفكر أقدس حقوقه ، لا يمكن أن يزدهر التفكير الرفيع ، ولا أن تصل الآداب والفنون الى ذرى القوة والصقل ؛ وتغدو الحياة العقلية مطبوعة بطابع التماثل للملل ، لأنها تسير وتسخر طبقاً للوحي القاهر . هذا الى أن التفكير والآداب في هذا الأفق المصطنع قد جردت من أقدس المثل التي استرشدت بها في كل العصور ، فأصبحت تمجد العبودية لأنها أسيرة الطغيان ، وتمجد الحرب لأنها صنيعة القوة الباغية ، وتسرف في إذكاء التعصب القومي لأنها جردت من المثل الانسانية الخالصة . وهذه الظواهر التي هي وليدة الطغيان قبل كل شيء تتجلى اليوم بأوضح ألوانها في ألمانيا على حداثة عهدها بالفاشستية ؛ فان الحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية ما كادت تظفر بقلب نظم الحكم في ألمانيا ، واقامة الطغيان على انقاض الديموقراطية ، حتى أخذت تفرض مبادئها ونظرياتها على التفكير والآداب والثقافة الألمانية ؛ وهي اليوم تمثل في الحياة الألمانية بقوة ، ونظرياتها القومية والجنسية المفرقة تطبع التفكير الألماني في جميع نواحيه العلمية والأدبية والفنية ، بل هي تذهب في الجرأة الى حد محاولة التأثير في العقيدة النصرانية وصبغها بصبغتها . والعلم والتفكير والآداب والفنون في ألمانيا تسخر كلها لخدمة الدعوة الوطنية الاشتراكية وتمجيد مبادئ هتلر ، واثبات نظرياته المفرقة في تفوق الجنس الآري على الأجناس الأخرى ، وتفوق السلالة الألمانيـــة على سائر المخلوقات ؛ واثبات صلاحيـــة الحكم المطلق وفشل الحكم الديموقراطي ؛ وتمجيد

الخضوع المطلق للزعامة ، والانتقاص من قيمة الحريات العامة ، وغير ذلك مما تضمنه برنامج الوطنية الاشتراكية «وانجيل» هتلر . وقد ذهب الوطنيون الاشتراكيون بعيداً فى السيطرة على زمام الحركة العقلية فى ألمانيا ، فبسطوا اشرافهم على الجامعات ، وأصدروا تشريعاً يصفد الصحافة ويجعلها مهنة شبه حكومية ، ويجعل الكتاب دعاة للوطنية الاشتراكية وطغيانها . وكما أن الفاشستية الايطالية بعثت الى الأدب الايطالى بصور رومة القديمة وذكريات الأمبراطورية الرومانية ومجد القياصرة ، وبالطموح الى احياء هذه الذكريات والصور فى حياة ايطاليا وآمالها ، فكذلك بثت الوطنية الاشتراكية فى الأدب الألمانى مثل الأمبراطورية المقدسة الذاهبة ، وصور ألمانيا العسكرية الظافرة الزاهرة تحمل زعامة الجنس الآرى كله ، وتملى على أوربا القديمة ارادتها ومثلها .

وقد كان للانقلابات السياسية والقومية دائماً أثرها فى توجيه التفكير والآداب فى جميع الأمم والعصور ؛ ولكن لعل التاريخ لم يشهد عصراً غمرت فيه القومية المتطرفة والنزعات الرجعية التفكير والآداب كعصرنا ، ذلك أن التوجيه القومى المعاصر يذهب الى حد الأغراق ويتخذ صوراً من العنف لم يسمع بها ، ويحاول أن يسيطر على جميع نواحى الحياة العامة ، وأن يتدخل فى صوغ العقلية الفردية فضلا عن صوغ العقلية العامة . ولا ريب ان الحركات القومية تكسب من وراء ذلك قوة ، وربما كسبت الأمم فى بعض نواحى الحياة المادية حيوية جديدة ، ولكن الحركة العقلية تعرض بالعكس لأخطار كثيرة . ذلك لأن الثورات القومية العميقة تقوم على العوامل السياسية قبل كل شىء ، وتستخدم فى سبيل مآربها سلاح الدعوات المغرضة والنظريات الموضوعة التى لا تقرها المثل الانسانية دائماً ، ولا يقرها العلم الخالص والحقائق المنزهة . والثقافات التى تطبعها أهواء السياسة والنظريات المغرضة ، والآداب التى ترغم على تصوير ألوان مصطنعة من الحياة العامة والحياة الفردية ، وتحمل على تمجيد البطولة الزائفة ، وتمجيد العبودية فى عصر النور والحريات ، وامتهان المبادئ والمثل المقدسة ، وتزييف حقائق العلم والتاريخ الراسخة ، هذه الثقافات والآداب ليست جديرة بأن تقود الأمم العظيمة ، وليست جديرة بالأخص بأن تتخذ مكانها بين تراث الانسانية الرفيع .

٢٥٩

إن تطور التفكير والآداب على هذا النحو فى أمم عظيمة كايطاليا وألمانيا ، هو بلا ريب ظفر جديد للمبادئ والاعتبارات المادية ، ولكن ظفر للمبادئ والاعتبارات المادية على حساب الحياة العقلية والروحية من ظواهر انحلال الحضارات والأمم ؛ وإن حضارة تمجد فيها العبودية ، وتطارد فيها العلوم والآداب ، لأجدر بالعصور الوسطى منها بعصرنا ما ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

من ذكريات فى مصر :

ساعة عند أمير الشعراء

لا أزال أذكر تلك الساعة السعيدة التى هبطت فيها مصر لأول مرة فى حياتى عام ١٩٢٩ فقد كانت مليئة بالخواطر ، فياضة بالآمال ، محفوفة بالاحلام . وكانت الفصل بين ماض راحل ، ومستقبل ماثل ، لقد تذكرت وأنا أجتاز ميدان (باب الحديد) وطرفى شاخص الى تمثال (نهضة مصر) القائم وسط ذلك الميدان الفسيح ، انى قد بلغت ما كنت أتشوف له وأصبو اليه ، فها أنا فى تلك المدينة الجميلة التى طالما تاقت الى مرآها نفسى ، وتزع اليها هواى ، وها أنا فى ذلك البلد الأمين الذى كان ملاك خاطرى وقيد ناظرى ، ومعقد أملى ، ومحط رغبتى ، كم كنت أتمنى فى تلك الساعة لو يتاح لى شهود مصر كلها فاجتلى مافيها ، لقد تمثلت أمامى بحضارتها المزيجة من روح الشرق الخالدة ، أو نفسية الغرب الجديدة ، فعملت فيها كل منهما عملها ، فظهرت من الاثنتين ثالثة كانت رباط الشرق بالغرب ، وجماع شخصيتهما المتباعدتين من أقدم العصور حتى اليوم .

وتمثلت أمامى باعلامها الميامين ، وأبنائها المقاويل ، وأساتيذها الأماثيل . وشعرائها الفلقين ، أولئك الذين تسمع دوى اسمهم فى انحاء الشرق يملك عليك سمعك ، ويأخذ بمجامع قلبك ، فرفعوا اسم مصر وبنوالها فى الادب والفن مجداً أصبحت به محط الرجال وقبلة الآمال . .